

عناوين متشابهة لمعطيات جديدة

بقلم غسان سلامة

في خريف ١٩٥٧، اشتكى الاردن من محاولات سورية لزعة حكمة الماشي. وبينما كانت عمان تتهم، كانت انقرة تجري مناورات برية على طول الحدود مع سوريا، واخرى بحرية في عرض "اللواء السليبي". كان العداء السوري - العراقي آنذاك مستحكما، بينما كانت مصر تعرب عن تضامنها مع سوريا فيما حددت السعودية لنفسها موقعا وسيطا يسعى للهدنة من جانب وتسويق "مبدأ ايزنهاور" من آخر.

شعرت دمشق حينها لا بتعدد مصادر الضغط الاقليمية فحسب، بل ايضا بالاصابع البريطانية والاميركية العاملة على تأليبها. فتصاعدت الازمة آنذاك تدريجا قبل ان تتلاشى في اروقة الامم المتحدة. ولكن الازمة ما انتهت يوما الا وكانت معادلة استراتيجية جديدة قد نشأت في المنطقة، من عناصرها تحقيق وحدة بين مصر وسوريا، وانهايمار النظام الملكي في العراق، وتعزيز دراماتيكي للنفوذ السوفياتي شرق المتوسط.

ما اشبه اليوم بالبارحة عندما نقرأ العاهل الاردني يبوح للصحافة الاميركية بشكواه من دمشق، فيما نرى حشود الجيش التركي ونلحظ تحركاته في عرض انطاكية. وتعدد وجوه الشبه لتشمل وضع غير ثابت في العراق، وموقفا سعودي متراجعا، وطموحا مصريا متجددا للعب دور الريادة ان لم يكن القيادة. وما اشبه "نظام الشرق الاوسط الجديد" الذي يسوقه كريستوفر مبيدأ ايزنهاور الذي حملنا لنا دالسا!

اننا نشهد اليوم، تماما كما لاربعين عاما مضت، محاولة حثيثة متعددة الاطراف لتعديل جوهر في المعادلة الاقليمية، عنوانه اليوم كما في الامس، موقع دمشق في المنطقة. كان هذا التعديل واردا في حسابات واشنطن وتل ابيب (ناهيك بعواصم عربية اخرى) فور سقوط جدار برلين وانهايمار الاتحاد السوفياتي. وكان المشروع يقضي بتحويل الشرق الاوسط نوعا من المرأة المصغرة للنظام العالمي تنعكس فيها صورة انتصار حلف الاطلسي على حلف فرسوفيا انتصارا لاصدقاء الاول على محازبي الثاني، بكلام اوضح، تعزيزا لموقع اسرائيل على حساب العرب اجمالا وسوريا خصوصا.

لكن دمشق عرفت، بحذاقة عز مثيلها، ان تتدارك الامور لكسب الوقت ومنع هذا المشروع من التحقق. فسارعت للانخراط في التحالف الدولي الذي استخلص الكويت من العراق ثم في مسيرة التسوية مع اسرائيل المنطلقة من مدريد. وعرفت دمشق ايضا كيف تحول عضويتها في التحالف المناهض لغزو الكويت كما في نادي المتفاوضين مع اسرائيل، نوعا من بوليصة التأمين ضد الاشارات المتكاثرة آنذاك بان سوريا لا ريب مقدمة على دفع جزء من فاتورة انهايمار موسكو، وضد التلميحات بان تحجيم النفوذ السوفياتي في العالم سيؤدي، في صورة تلقائية، الى تصفير الدور السوري في المنطقة. ولم يتوان عديدون في مطلع التسعينات عن توقع مصائر لقادة سوريا (والعراق ومصر وغيرهما) شبيهة بتلك التي عرفناها للروسي غورباتشيف او للروماني تشاوشيسكو.

غير ان دمشق تمكنت من تكذيب هذه التوقعات، فلا انهار النظام ولا عزلت سوريا ولا هي ضحت بما لا تعتقد انها قادرة على التضحية به الى طاولة المفاوضات، واستطاعت ان تكسب سنوات خمسا ثمينة من المهادنة

◀ عناوين متشابهة لمعطيات جديدة

- تممة المنشور في الصفحة ١ -

الدولية. لكن الرياح عادت لتهب تدريجاً على سوريا مطلع الصيف الماضي عندما تبدلت لهجة واشنطن حيالها، وقلت زيارات وارن كريستوفر لها بينما كان مساعده بيليترو يتناسى سؤالها الرأي في مسألة العراق مع انفجار تراجيكوميديا "الصهر".

ومع تبدل اللمجة الاميركية، تزايد تطاول اكثر من طرف عربي على دمشق بينما تعددت الضغوط التركية قرارات منفردة في مسألة الفرات، وحشودا عسكرية وتصريحات استفزازية، وكانت اسرائيل واميركا تعملان معا "لتحرير العرب من الشروط السورية" كما قال آنذاك مسؤول اميركي كبير، اي لدفع عملية التطبيع الى اقصاهما رغم عقم التفاوض في الملف السوري - الاسرائيلي.

لم تهدأ الحملة المتصاعدة الا قليلا غداة اغتيال اسحق رابين حين بدت العودة للمفاوضات السورية - الاسرائيلية ممكنة. ولكن العمليات الانتحارية داخل اسرائيل عادت لتثقل هذا الباب، فالتسعت الفجوة مجددا وتجزرت وسائل الضغط. فحطت الطائرات الاميركية في مهمة مفتوحة الاهداف والزمن في قاعدة الازرق الاردنية، وتحول التناغم التركي - الاسرائيلي نوعا من التحالف العسكري والامني الضانط، بينما وضعت اطراف "شرم الشيخ" الارهاب في تحديده الاسرائيلي في قمة الهموم، مقابل التسوية بل قبلا. وهدفت عملية "عناقيد الفضب"، بين امور متعددة، الى ابراز عجز دمشق العسكري عن مواجهتها بصورة مباشرة على ارض لبنان، بينما حملت صناديق الاقتراع الاسرائيلية للحكم مجموعة من الليكوديين المتوافقين على رفض استعادة سوريا لجزولانها. واتخذت الحملة هذه وجها يكاد يكون مضحكا عندما سربت واشنطن ما يشبه الحرص على عدم اشعار سوريا بالعزلة، وكان اميركا بريئة من محاولات الضغط هذه، وغريبة عن القائمين بها.

تسعى سوريا اليوم الى تحويل القمة العربية مناسبة لتخفيف حدة هذا الطوق، باستظهار قدر من التعاطف، ان لم يكن من التضامن، العربي مع الموقف السوري. وحجة دمشق الاولى ذاك التحلي الاسرائيلي الشعبي الواضح عن قواعد التسوية المقبولة مع العرب. وقد تسعى دمشق لتجميد وتيرة التطبيع مع اسرائيل وللعودة الى مبدأ المقاطعة واعتبار الضغوط الممارسة اليوم على دمشق ضغوطا على المجموع العربي بأسره. وتعلم دمشق انما، في محاولتها هذه، انما تستند الى رأي عام عربي هو في الاجمال متفهم لموقفها التفاوضي حتى لو لم يمل اجمالا لمانصرتها.

ولكن شقان ما بين هذا الرأي وموقف الحكومات. فبعضها منحرف في عملية الضغط على سوريا، وبعضها الآخر لن يتضامن مع دمشق الا مع الاحتفاظ باطيب علاقة ممكنة بواشنطن. وستتذرع غير دولة عربية بعدم استشارتها قبل عقد القمة بينما تتكأ اخرى بالتعبير عن موقف مؤيد بسبب تحالف سوريا مع ايران. اضع الى ذلك تغييب العراق عن القمة وتخلف عدد من رؤساء الدول عن حضورها وضغوط اميركية حثيثة لتتففيه بيانها الختامي، مما يشير الى ان منحى عربيا مجددا هو اليوم ضعيف الاحتمال.

وهذا ما يفسر شعور نتنياهو بالثقة. فاسرائيل في واسطة هذه المحاولة الدؤوبة لتغيير المعادلة الاقليمية تعزز تحالفها مع تركيا، تحتفظ بمكاسب التطبيع الحاصلة من دون ان تلتزم بالتسوية الشاملة، وتؤثر بعمق على مجمل الاستراتيجيا الاميركية في الشرق الاوسط.

وما يسعى نتنياهو اليه، بدعوته الى مدريد ثانية، هو بالذات دفن مدريد الاولى، اي العودة بالمنطقة الى تلك اللحظة التي لم تحسن اسرائيل في رأيه استغلالها في مطلع التسعينات لترجمة انتصار الغرب على الشرق فوزا لاسرائيل بتسوية تحدد مضمونها منفردة. يريد نتنياهو ان تكون التسوية مرآة صادقة لميزان القوى العسكري بين سوريا واسرائيل، مع استبعاد الضمانات الموازنة التي حصل عليها العرب في مدريد، اي قاعدة "الارض مقابل السلام"، واتخاذ القرارات الدولية كمرجعية. وهي ضمانات يحلو لرئيس الحكومة الاسرائيلي تسميتها "شروطا سابقة" بغية طمرها. ويريد نتنياهو بالذات تجريد دمشق من "بوليصة التأمين" التي حصلت عليها لقاء انخراطها في حرب الكويت وفي مفاوضات مدريد. انه مشروع اسرائيلي القلب، متعدد الاطراف، لصوغ معادلة اقليمية جديدة مستلزمة من منطق الحرب الباردة، تضيء فيها القدرة العسكرية على الشطارة الديبلوماسية، ومفهوم القوة على مفهوم التسوية، وللرعونة والتصلب وروح المغامرة فيها موطن وموئل ومجال رحب.

قلنا: ما اشبه اليوم بالبارحة. ولكنه شبه سطحي الى حد كبير: اين خروئتيف يهدد اليوم، كما في ١٩٥٧، انقرة بان الحرب، ان اندلعت، لن تتوقف اوارها على سوريا؟ اين عبد الناصر يأمر مظلبيه بالقفز فوق سوريا لحمايتها من اطراف حلف بغداد؟ في المقابل لم تعد اسرائيل قابعة في الزاوية، وهي اليوم تتنطح لدور اقليمي يبدأ على مدرجات مطار قونيا العسكري ولا ينتهي عند جزر حنيش في جنوب البحر الاحمر.

قد تتشابه العناوين ولكن المعطيات تبدلت. فاسرائيل تحولت من محمية غربية حصانا نوويا جامحا، وتلاشت الفكرة العربية فانقسم العرب بين غني وفقير، ومدعوم ومعزول. وتحولت ايران نظاما ثوريا يسعى للتأثير غربا، بينما وضع العراق في سلاسل العقوبات. وبينما فتحت ازمة ١٩٥٧ ابواب المنطقة امام الدور السوفياتي، تأتي ازمة اليوم لتحاول استخلاص نتاج خروج منها.

بقي ان يعي اللبنانيون خطورة المرحلة وان يتذكروا انهم ما دخلوا في المشاريع المادفة الى تعديل الاوضاع الاقليمية الا كانوا اول من دفع غالبا ثمن تلك المشاركة كما في ١٩٥٨ و ١٩٧٥، وكما هي الحال في يومنا هذا، ولا يقيهم شر المنازعات الكبرى الا تمسك امتن بوحدتهم الداخلية وبمؤسساتهم الشرعية وبنظامهم الديموقراطي، وموقف صارم يقول: ان هبت الرياح على سوريا، فاللبنانيون يرفضون ان تمر عبر شبابيكهم. غسان سلامة

النها، ١٩٦٠/٦/٩٦